قراءات في مفهوم التسامح عند فقيد الفكر الاسلامي:الدكتور عبد المجيد مزيان

أ: زهير مزيان[*]

تمهيد:

وأنا أقدم لكم هذا العرض المتواضع، التمس العذر من لدن بعض الاساتذة الذين هم أحق مني علماً ومعرفة ودراية للحديث في موضوع التسامح في منظور، أو وجهة نظر أستاذ الفلسفة وعلم الاجتماع، المفكر الجزائري الشهير «الدكتور: عبد المجيد مزيان»[1] رحمة الله عليه.

وعلى هذا النحو أكتفي بذكر القليل مما أعرف عن الراحل من بعض كتاباته ومحاضراته، خاصة في نهاية الألفية الماضية، عندما كان على رأس المجلس الإسلامي الأعلى، حيث نوقشت في إطار نشاطاته المتعددة بهذه الهيئة العليا قضايا حساسة، بما في ذلك الحريات الفكرية والحريات السياسية، والتعايش مع الآخر داخل نفس المجتمع ومسألة الأديان. وكذلك تمت مناقشة قضية وقيّم التسامح.

وبصفتي أحد المقربين منه، والمستشار الإعلامي له في تلك الفترة، استأذنكم لتقديم قراءات متواضعة لبعض مداخلاته في منتديات خاصة بموضوع الحوار بين الحضارات، والحوار بين الثقافات، والحوار بين الأديان، الأمر الذي دعاني إلى استنتاج أن مفهوم التسامح لديه مرتبط بالحوار في أبعاده الثلاثة؛ الفكري، العقائدي والسياسي...

1.التسامح على المستوى العقائدي.

يعتبر الأستاذ: (عبد المجيد مزيان)أن محاورة الأديان وثقافة الآخرين ليس ضرورة فقط، بل هي فريضة إسلامية أصيلة[2]. ومما يدل على قناعاته بهذه الضرورة أنه انضم إلى المسار الذي خاضه نخبة من المفكرين والعلماء من أجل تنشيط الحوار الإسلامي المسيحي منذ ستينيات القرن العشرين، بما فيهم فلاسفة فرنسيون، نذكر منهم: «لوي قاردي، وجاك بارك، وموريس بورمانس».

كما نذكر أيضاً الفيلسوف المغربي: «محمد عزيز لحبابي»، وأسقف الجزائر الأسبق، صديق المرحوم «الاستاذ هنري تيسي». فقد كان الأستاذ:(مزيان) عضواً في هيئة تحرير مجلة: «إسلامو كريستينا»[3]، منذ سنة 1975.

كما أدار طيلة سنوات سبعينيات القرن الماضي، العديد من الندوات والمحاضرات بمعهد(بونتيفيكال) للدراسات بروما، وذلك بالتنسيق مع معهد الدراسات العربية العليا (بالفاتيكان)، حيث ساهم أيضا في عقد وتنشيط العديد من الندوات واللقاءات حول الإسلام والتسامح وحوار الحضارات.

ومما عزز عنده، قناعاته العميقة والثابتة بأهمية التسامح العقائدي، وما يتطلبه من جهد في الحوار المبني على نشر القيَّم الإنسانية، ما تتميز به شخصيته المبنية على إحدى المقومات الفطرية لنشأته. فهو من سلالة الفقهاء والأئمة والعلماء الذين يشهد لهم بذلك تاريخ علماء وأولياء مدينة تلمسان[4]. كما كان لوالده، وهو عضو في جمعية العلماء المسلمين، وإمام مسجد علاقة صداقة متينة مع أب الكنيسة في الستينيات قامت على المحبة والود والإخاء والتسامح.

كما كان المجلس الاسلامي الأعلى تحت رئاسة «عبد المجيد مزيان»، على اتصال دائم بالكنيسة الجزائرية، وفي حوار مستمر معها، لتبادل الرأي والمشورة في معظم القضايا التي تتطلب ذلك. فقد ساهمت الكنيسة في بعض ندواته، خصوصاً ندوة «عطاء الاسلام في أخلاقيات الطب»[5]، حيث اكتشفت إضافات الإسلام في هذا الجانب، ومدى تقدمها وجرأتها أحياناً.

2.العلمانية والتسامح.

وعن العلمانية، كل علمانية، قال: (عبد المجيد مزيان)إنها اذا وجدت بيننا، فلا يمكن أن تعني شيئاً غير التسامح بين الأديان والعقائد والأفكار. تلك هي العلماينة الحقيقية. ومثل هذا التسام يضمنه كل نظام سياسي جدير بهذه التسمية. فقد كان المفكر يرى أن التعايش بين الأديان مكفول في بلادنا بفضل النظام السياسي السائد، ورجال الدين الإسلامي المتفتح، الساعي لا إلى التوفيق بين المذاهب فحسب، بل إلى التوافق بين الأديان السماوية كلها.

أما إذا كانت العلمانية تدعو إلى محاربة الإسلام بالعنف نفسه الذي يمارسه المتطرفون الإسلاميون، فهي علمانية تطرف، ولا يمكن أن تنجح في بلادنا. ورأى أن الإسلام يضمن الحريات، كما يضمنها أي نظام جمهوري، وكرامة الإنسان لا يمكن صيانتها بغير التفاهم والوفاق، بعيداً عن التعصّب والتطرف وآثارهما الوخيمة.

3.التسامح الاجتماعي.

ومن القضايا التي تعامل معها بجرأته المعهودة، في اطار المجلس الإسلامي الأعلى، والتي تطرح مسألة التسامح، ما يتعلق ب«إجهاض المغتصبات» خلال المأساة الوطنية التي عرفتها الجزائر في التسعينيات. وفي اعتقاده؛ فإن المشاكل التي تطرحها بعض الحالات ينبغي أن تدرس علمياً من قبل الأطباء ورجال الشريعة وعلماء النفس. وقد طرحت مسألة المغتصبات الحاملات على المجلس وطلب إليه إبداء الرأي فيها، وهل من المرغوب إسقاط حمل المغتصبة إذا كان الحمل سيعرضها للخطر.

لقد كان رأي المجلس أن إبداء حكم نظري عام في مثل هذه المسألة غير ممكن. ولا بد من درس كل حالة بذاتها من جميع جوانبها العلمية والطبية والنفسية. وبعد ذلك جيء بالفتاوى الشرعية التي تؤكد أن المرأة المغتصبة شريفة. وهذا هو الأهم، وأن المجتمع ينبغي أن يحافظ عليها ويحميها من كل أشكال العنف التقليدي وبقايا الممارسات القبلية الموروثة التي تضطهد المرأة وتعتبرها مجرمة، بينما هي في الواقع ضحية.

وحرص رئيس المجلس حينذاك على أن يستمد رجال الشريعة هذه الفتوى استناداً الى أحاديث نبوية وسير خاصة تؤكد أيضاً أن ولد المغتصبة شريف يجب أن يُحمى أسوة بوالدته. لكل ذلك ينبغي أن نبادر أولاً برفع الحرج النفسي الذي تعانيه المغتصبة. أما إذا كانت الصدمة النفسية شديدة، إلى درجة قد تؤدي إلى وفاة المغتصبة، وهذه حالات نادرة، فيمكن عندئذ للجنة مختصة من أطباء وفقهاء ونفسانيين وأخلاقيين، أن تنظر في الأمر، وتحكم بالإجهاض كحل وحيد لنجاة الحامل.

فالإجهاض باب عويص لا ينبغي أن يفتح بسهولة، وحتى لا يتسلل منه كل من هبّ ودبّ من مرتكبي الأعمال المضادة للأخلاق والمجتمع. ولا شك في أن الاغتصاب الذي ارتكبه إرهابيون شكّل حالة خاصة، فهؤلاء مجرمون ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية، ولا بد من فضحها. لكن في الوقت نفسه ينبغي حماية المغتصبة وطفلها، لأنهما ضحايا هذا النوع الشاذ من الإجرام الخارق لكل أنواع القوانين[6].

4. التسامح والحوار بين الديانات والحضارات.

وعلى ضوء مختلف آرائه الفكرية في شأن المجتمعات الإسلامية، فقد اعتبر المفكر (عبد المجيد مزيان) أن الحوار أمر يكاد يبقى محصوراً في مبادرات محدودة شخصية أو سياسية، إذا لم نولي اهتماماً خاصاً لأزمة المجتمع الإنساني الذي يعاني من الأزمات والصراعات. لذا، فإن هذا الحوار بجميع أشكاله، لا يمكن أن يحدث إلا إذا توافرت مجموعة من الشروط عند المجتمعات الإسلامية، وعند الغرب المسيحي.

إن عملية التشخيص هذه نراها تلقي بضلالها على كتاباته ومحاضراته ومداخلاته وأحاديثه. ومن ضمن الأسباب يمكن أن نسجل منها على سبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

أ. عند المسلمين.

التشتت المذهبي في المجتمعات الإسلامية، وما صاحبه من فتن وانحراف وابتعاد عن قيم الحرية. وعلى هذا النحو، وفي إطار نشاطات المجلس الإسلامي الأعلى بادر (عبد المجيد مزيان) إلى التحضير لملتقى يعالج قضية «التفاهم بين المذاهب الإسلامية»، لمواجهة هذه الآفات المدمرة والمشوهة للإسلام. كما بادر بتحضير الملتقى الدولي حول المفكر الجزائري القديس (أوغسطين) أب المسيحية الكاثوليكية في القارة الإفريقية، لكن وافته المنية وتم تنظيم هذا الملتقى عملاً بخارطة الطريق التي وضعها له.

كما دعا إلى فهم النصوص فهماً حيوياً، وهو أمر يجعلنا نتعلم المفاهيم الأساسية منها على الأقل، ونرجع فيها إلى المبادئ الحية ونضحي بالشكليات والاتجاهات الحضارية التي ورثناها عرضاً، دون أن ننسى الأخذ دائماً بالسبل العلمية من أجل الإحاطة بأية قضية نستشكلها ونظفر بحلها.

ب.عند المسيحين.

يقول الأستاذ:(عبد المجيد مزيان) أن الدواهي كلها في العقيدة. فإذا ما أصاب الغزو الفكري العقيدة التي هي في صميم الذات، فإن الأجزاء الأخرى من الحضارة ستنهار بانهيار هذا الأساس. وأي غفلة مهما كانت قصيرة عما يحدث في العالم من مستجدات فكرية سيؤدي إلى الفتنة العقائدية، وإلى غزو ثقافي وفراغ مرجعي. ومن مظاهر هذا الغزو انتشار الإلحاد.

ويقول في هذا الصدد: إذا كان إلحاد ثورتي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالغرب مخصصاً لإبراز عقيدة فلسفية وسياسية، تقاطع كل نظرة دينية وترفض الوحي، فليس ذلك لأنه مجرد إلحاد عملي، يرمي إلى التخلص من سيطرة الكنيسة وإرهابها الفكري الذي كان يمارس على السياسيين، وعلى العلماء، بل إن الإلحاد الفلسفي المرتبط بالمادية العقائدية ظهر للوجود مع أوائل مفكري القرن الثامن عشر، بعد أن نقلوا العقلانية المنهجية إلى تجريبية علمية وعملية.

لقد أتوا _ مع الأسف _ بهذا الإلحاد على كل تصور روحي للوجود: فأصبح الإنسان مجرد كائن حي متطور عند المتطورين، وأصبحت العلاقات الاجتماعية عبارة عن تعاقدات نفعية خارج الأخلاق، والحياة الاقتصادية مسايرة للطبيعة وللحسابات المركبة بين المستفيدين منها. فلا يمكن أن نغفل عن العلمانية كمظهر من مظاهر هذا الإلحاد.

الهـوامش:

(*) **أ. زهير مزيان:** مستشار إعلامي سابق لرئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

(1) https://fr.wikipedia.org

(2) التفاهم بين المذاهب من 25 إلى 27 مارس 2000.

(3) أنظر الرابط:

http://fr.pisai.it/publications/revues/islamochristianaHYPERLINK /"/"http://fr.pisai.it/publications/revues/islamochristiana

(4) https://archive.org/details/ElBoustane

(5) ملتقى عطاء الإسلام في أخلاقيات الطب من 06 إلى 07 أكتوبر 1998.